﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرّعد: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الجواب الحاسم في الرَّدِّ على تعنُّت الكفّار بعد ذِكْرِ عِناد المُشركين

لمّا ذَكر الله تعالى في الآيات السّابقة عِناد الكافرين وتعنُّتَهم بطَلَب الآيات من رسول الله ﷺ بقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الرّعد: 27] كانت هذه الآية بمَثابة الجواب الحاسم في الرَّدِّ على تعنُّتهم؛ لأنَّ رسول الله ﷺ ليس بِدَعًا في أمْر الرِّسالة؛ فقال له: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ كما أرسلنا الرُّسل من قَبلك لأمر الهداية وليس لطَلَب المُعجِزات[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٖ﴾: الأُمَّة: كلُّ جماعة يَجمعهم أمرٌ ما، إمّا دين واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أم اختيارًا، وجمعُها (أُمَمٌ)، وتُطلَق (الأمَّة) على: جماعةٍ من النّاس أُرسلَ إليهم رسولٌ، سواء آمنوا أم كفروا، وتُطلَق كذلك على عالِم دَهره المُنفرد بعِلمه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [النّحل: 120]؛ أيْ: قائمًا مقام جماعة في عبادة الله، ومن معانيها إطلاقُها على الحينِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]؛ أيْ: بعد حين[2]، ومن معانيها: الشِّرْعَة والدّين، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [البقرة: 213]؛ يعني: مِلَّةً.

وممّا يُؤكِّد هذه المعاني أنَّ المعنى المِحوريَّ لهذه اللَّفظة يُطلَق على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 139/13.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمّ).

تَضامٌّ شيءٍ أو أشياء مُتجانِسة؛ أيْ: لحاق بعضِها ببعض في حيِّزٍ يُحيطُ بظاهِرها بلُطْفٍ، كما تَضُمُّ تلك الجِلدةُ الرَّقيقة مادّةَ المُخِّ، وكما تَتضامُّ القامَة، وقد قال علماء اللُّغة: كلّ شيء يَنضمُّ إليه سائرُ ما يليه فإنَّ العرَب تُسَمّي ذلك الشّيْءَ أُمًّا، والأُمّ لِكُلِّ شيءٍ هو المَجمَعُ والمَضَمُّ[1].

2) ﴿خَلَتْ﴾: خَلا يَخْلو خَلاءً فهو خالٍ، والخَلاءُ من الأرض: قرارٌ خالٍ لا شيءَ فيه، وخَلَّى مكانَه؛ أيْ: ماتَ، وخَلا قَرْنٌ؛ أيْ: مَضى؛ فهو خالٍ، فالخُلُوُّ يُستعمل في الزَّمان والمكان، وأصلُه مِنَ التَّخلّي، وهو: تَعرّي الشَّيْءَ مِن الشَّيْء، ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: مَضَتْ وانقَرَضَتْ[2]، والمعنى المِحوريُّ: فَراغُ الحَيِّزِ أو الظَّرْف مِمّا كان أو شأنُه أن يَشغلَهُ مع بقائه هو مُتَماسِكًا، كالمكان والدّارِ الخاليَيْنِ، وكالخَلاء من الأرض، ومنه خَلا بصاحِبِه، وإليهِ، ومعهُ: اجتَمَعَ معه في خَلوة[3].

3) ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾: التِّلاوَةُ: القِراءَةُ المُتَتابِعة المُتَناسِقة في اللَّفظ والمعنى، يُقال: تَلا الخِطابَ: إذا قَرَأَهُ، وتَأْتي بِمعنى ذِكْرِ الشَّيْءِ، فيُقال: تَلا الشَّيْءَ، إذا ذَكَرَهُ، وأصْلُها: الاتِّباعُ، يُقال: تَلا، يَتْلو، تُلُوًّا؛ أيْ: تَبِعَ، والتّالي: التّابِعُ والآتي بعد غَيْرِهِ، وتِلْوُ كُلِّ شَيْءٍ: ما يَتبعُهُ، ومنه سُمّيت قِراءَةُ القُرْآنِ تِلاوَةً؛ لأنَّ القارِئَ يُتْبِعُ آيَةً بعد آيَةٍ[4]، فالمعنى المِحوريُّ هو: اتّباع الشَّيء ما يَسْبِقُه لُحوقًا به من خَلْفِه، كالأعْجاز، وكوَلَد النّاقة يَتبعُ أُمَّه، ومنه تَلْوَتُه: تَبِعْتُهُ، وفلان يَتْلو فلانًا: يَحْكيه ويَتبعُ فِعْلَه: قال تعالى ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشّمس: 1 - 2]؛ أيْ: تَبِعها[5].

4) ﴿مَتَابِ﴾: أصْلُ (توب): يدلُّ على الرُّجوعِ، يُقال: تابَ إلى اللهِ، يَتوبُ، تَوْبًا وتَوْبةً ومَتابًا؛ أيْ: أنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إلى الطّاعَةِ، فقوله: ﴿مَتَابِ﴾؛ أيْ: تَوْبَتي ومَرْجعي وأوْبتي[6]، والمَتابُ: مَصْدَرٌ ميميٌّ على وزنِ مَفْعَل؛ أي: التَّوبةُ، يُفيدُ المُبالَغةَ؛ لأنَّ الأصلَ في المَصادِرِ الميميَّةِ أنَّها أسماءُ زَمانٍ جُعِلَتْ كنايةً عن المَصدَرِ، ثُمَّ شاعَ استعمالُها

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيدَه، المُحكَم، والرّاغب، المُفردات: (خلا)، و(خلو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (تلو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).

حتَّى صارتْ كالصَّريح، والمعنى المِحوريُّ لِلّفظة: توقُّف الشَّخص وانقطاعُه عمّا كان يَعمله من الذُّنوب ونحْوِها لرِقّةٍ اعْتَرتْه؛ فالتَّوبة تَرْك التَّمادي في المعاصي: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ [النِّساء: 16][1].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

صبر الرُّسل على أقوامهم نماذج بشريَّة سامية

بيَّن الله تعالى في هذه الآية أنَّ مِثْلَ ذلك الإرسالِ الّذي كان للأنبياءِ السّابقينَ مع أُمَمِهم أرسَلْناك - أيُّها الرَّسولُ - بكتابٍ تُبلِّغُه للنّاسِ وتَقرَؤُه عليهم، كما أرسَلْنا رُسُلًا إلى أُمَمٍ مِن قَبلِك، وحالُ قَومِك الجُحودُ بوَحدانيَّة الرَّحمنِ المُنْعِم عليهم بِجَلائل الرَّحمة، ومنها رحمة إرسالِك إليهم من أنْفُسِهم، قلْ لهم يا مُحمَّدُ: إنَّ الَّذي كفَرْتُم به أنا مُؤمِنٌ به، وهو ربّي وحدَه، لا مَعبودَ بحَقٍّ سِواه، عليه تَوكَّلتُ، وإليه مَرجِعي[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الفصْل في: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

بيان عَظَمة الإرسال كأنَّه نَسيجُ وحْدِهِ في التَّفرُّد

فُصلَتْ هذه الآية الكريمةُ عمّا قَبلَها؛ لبيان عظَمة الإرسال، فهو إرسال لا يُشبهه إرسال، فكان المُشبَّه به هو عيْن المُشبَّه[3]، فيكون في أقصى البيان والبلاغة، يُضاف إلى ذلك أنَّ في افتتاحها بـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تَأْكيدًا للمُشار إليه وهو التَّعجُّب من ضلالتهم إذ عَموا عن صِفة الرِّسالة[4].

سِرُّ إيثار الكاف في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تعدُّد دلالات (الكاف) وتنوُّعها بخِلاف (مِثل) المُتَمحِّضة للتَّشبيه

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالكاف مع دلالتها على التَّشبيه

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/530، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/41.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/140.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/140.

لِتَعدُّد معانيها، فتَأْتي للتَّوكيد والتَّحقيق؛ كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وقد جاءت إفادتها للتَّحقيق، من كثرة مجيئها لبيان التَّطابُق، واسْتُعملَتْ في لازِم معناها الأصليِّ الَّذي تُنوسي. واستعمال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّحقيق والتَّوكيد لا يَقِلُّ عن استخدامها في التَّشبيه[1]، أمّا (مَثَل) فهي نَصٌّ في التَّشبيه، فاتِّساع المعنى هو المُناسب لِتَوْظيف (الكاف) لا (مثل)، إضافة إلى عادة القرآن في تَوظيف ذلك الأسلوب، فاللَّفْظة على مَدار القرآن وفي أغلَب آياته تأْتي ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لا (مثل ذلك).

نكتة الإشارة للبعيد: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

إفادة التَّفخيم والتَّعظيم إيذانًا بعُلوِّ درجةِ المُشارِ إليه

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ للبعيد للتَّفخيم[2]، وهذا دالٌّ على عظَمة العمليَّة الإرساليَّة من مرسِلٍ وهو الله ﷻ، ومرسَل وهو الرَّسول ﷺ، ورسالةٍ هاديَة إلى طريق الحقِّ، فالبُعْدُ بُعْدُ هَيْبة وجَلالٍ، وفيه إيذانٌ بعُلوِّ درجةِ المُشارِ إليه في الفضْلِ مع كمال تميُّزِه وانتظامِه بسببِ ذلكَ في سِلكِ الأمور المشاهَدة[3].

نُكتة استعمال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في القرآن بالمخاطب المفرد:

الإشـــارة إلى عـمـومـيَّـة المُـخـاطَـب مع اطِّراد تأكيد الأمر وتحقيقه

النّاظِر في هذا الأسلوب في آيات القرآن الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، المُكوَّن من (كاف التَّشبيه) و(ذلك)، يجِدُ أنَّه جاء على صوَرٍ مُتَعدِّدة في المُخاطَبَة، والأصْل فيها أن يكون مُناسِبًا للمُخاطَب، كقول يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: 37] مُخاطِبًا صاحبَيْه في السِّجن، وكما جاء على لسان امرأة العَزيز في خِطابها للنِّسوة: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ [يوسف: 32]، وكما هو مَعَنا في هذه الآية

(1) أحمد البدويّ، من بلاغة القرآن، ص: 166.
(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/237.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/219.

في خِطاب المفرَد بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، وقد يَرِدُ أيضًا بتَوجيه الخِطاب إلى جماعة المسلمين كما في قوله تعالى في سورة البقَرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143] وكان مُقتضى الكلام أن يُقال: (كذالِكم) لكنَّه وحَّد الخِطاب خُروجًا عن الأصْل؛ لأنَّ تَعيين المُخاطَب، وهو جمعٌ دلَّ عليه ما وردَ بعد اسم الإشارة ﴿أُمَّةٖ﴾، ولهذا الاستعمال نُكتة أشارَ إليها أبو السُّعود، ذلك أنَّ إفراد حرْف الخِطاب مع تَعدُّد المخاطَبينَ آتٍ باعتبار تَعَدُّد القَبيل أو الفريق أو لعدَم القصْد إلى تعيين المُخاطَب[1]، ففي تَوظيفِه عموميَّة وشُيوع لا خصوصيَّة، وإضافةً إلى ذلك فهذا الأسلوب: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ اطَّرد في تأكيد الأمر وتحقيقه حتّى كأنَّه سُلِب عنه معنى التَّشبيه[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ لا (بَعَثْناك):

هَيمنة جوّ الرَّحمة والهدوء دون جوّ الإثارة والقوَّة

سِرُّ تَوظيف (أرسلَ) هُنا أنَّ فيه بَعثًا بِتُؤَدة، وفي الفعل معاني اليُسرِ والسُّهولة والرِّفق[3]، وهذا يُناسِب جوَّ الرَّحمة واللّين الَّذي أشاعه لفظ (الرَّحمن)؛ أيْ: البليغ في الرَّحمة، وكذا تلاوة ما أوْحاه اللّه إلى رسوله، أمّا (بعثَ) ففيها معنى الإثارة[4] والقوَّة وهذا لا يُناسِب التِّلاوة وما أوحي إليه، إضافة إلى أنَّ (انبعثَ) مُطاوِع (أرسلَ)[5]، فكأنَّ البَعث إحياء نتيجةَ الإرسال العظيم الفَخم.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ دون (نرسلك):

إبراز قيمة الثَّبات مع بَثِّ الثِّقة في نفْس الرَّسول

الفعل الماضي بزمَنِه دالٌّ على تَحَقُّق الإرسال واستقراره؛ لأنَّ الإرسال قد تمَّ واكتمَل، وفائدة الثَّبات والإتمام بَثُّ الثِّقة في قلب الرَّسول ﷺ، والإيذان ببَدْء تبليغ التَّكاليف الَّتي أُمِرَ بتكليفها على الوجْه الأكمَل.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/219.
(2) الشهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/224.
(3) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).

دلالة نون العَظَمة في: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾:

إبـراز الـقُـدْرة المُطْلَقة والهَيمنة عـلى عـمـليَّـة الإرسال

قوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يَدلُّ الإسناد بنون العظَمة على التَّعظيم والتَّشريف[1] لمُشتَمَلات الإرسال كُلِّه: المرسِل (الله ﷻ) والمرسَل (الرَّسول ﷺ) وموضوع الرِّسالة (الإسلام)، فالقِصَّة كُلُّها قِصَّةٌ عظيمة جليلة؛ لما تَضُمُّه من هداية ورشاد للبشريَّة، ثُمَّ إنَّ نون العظَمة تعني التَّأييد له ﷺ، وخِذلان مَنِ اتَّهموه وعادوهُ، وإيرادُها لتربيةِ المَهابةِ وإدخال الرَّوعة[2] في قلوب الكفّار، وللإعلام أنَّه هو المُتَحَكِّم والمُهيْمن على عمليَّة الإرسال.

دلالة توجيه الخِطاب: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾:

تعـظـيـم قَـدْرِ الـرَّسـول ﷺ وتـقـويـة نفْسِه بالتَّأييد المُطْلَقِ

في قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ توجيه الخِطاب للرَّسول الأعظَم ﷺ، وفيهِ تَنويه وتشْريف له[3] وتفخيمٌ لشأْنِه الكريم؛ فالرَّسول ﷺ مُشارِك في هداية النّاس بإبلاغ ما أوحي إليه، وفي ذلك التَّنويه تأييدٌ وتقويَة وتسليَة بأنَّ مَن أرسلَكَ لن يَتركك وحْدَك، وإنَّما سيكون ناصِرَك ومؤيِّدَك.

وجْه التَّشبيه، والمُشَبَّه به: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾:

قَصْدُ المُبالَغة في بلوغ المُشَبَّه غاية ما يكون فيه وجْه الشَّبه

المُشبَّه به مُتعدِّدٌ، فيجوز أن يكون المُشَبَّه به هو الإرسال المَذكور المفهوم من الفعل (أرسل)؛ أيْ: إرسال الرُّسُل قَبلَك؛ فالمعنى: مِثْلَ ذلك الإرسال أرْسلناك؛ يعنى: أرسلناك إرسالًا له شأن وفضْل على سائر الإرسالات[4]، ويجوز أن يكون وجْه التَّشبيه: كما أرسلنا إلى أُمَم وأعطيناهم كُتُبًا تُتْلى عليهم؛ كذلك أعطيْناك هذا الكتاب وأنت تَتْلوه عليهم؛ وثَمَّ اتِّجاه آخَر في بيان المُشبَّه به، فالمشبَّه به هو عيْن المُشبَّه لِقصْد المُبالَغة في بلوغ المُشَبَّه غاية ما يكون فيه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/695.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/93.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/405.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/529.

وجه الشَّبه، بحيث إذا أُريدَ تَشبيهُه لا يُلجأ إلّا إلى تَشبيهِهِ بنفْسِه، فيكون كناية عن بُلوغه أقصى مراتب وجْه الشَّبه؛ أيْ: مثْل ذلك الإرسال أرْسلناك[1].

سِرُّ التَّعبير بالظَّرْفيَّة ﴿فِيٓ﴾ دون (إلى):

شـرَف الـرَّسـول ﷺ وعُـلـوُّ مكانته والنَّعْي عـلـى عـقـول الكفّار

في التَّعبير بالظَّرْفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَّةٖ﴾ فوائد: الأولى: الإشارة إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو من صَميم هذه الأمَّة حتّى لَكأنَّها أشْبَه بالظَّرْفِ الَّذي يَحتويه زمانًا ومكانًا ومجتمَعًا، فهو ليس طارِئًا على هذه الأمَّة، مُستَدْعًى إليها من خارج ذاتها، وإنَّما هو في الصَّميم منها[2]، الثّانية: حرْف الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ أشَدُّ مُناسَبة؛ لأنَّ الفِعْلَ (أرسلَ) فيه معنى الامتداد[3]، والامتدادُ توغُّلٌ وتعَمُّق في الأمَّة، بما يعني التَّداخُل الشَّديد بين الرَّسول وقومِهِ، وكأنَّ الأمَّة جُعِلَتْ ظَرْفًا لهذا الإرسال، الثّالثة: توْظيف ﴿فِيٓ﴾ نَعْيٌ على عقول مَن كفروا بالمُرسَلين والتَّسجيل عليهم والمُناداة على جَحْدهم للحقِّ مع ظُهور أدلَّته، ويقينهم بصِدْق مَن أُرسِل إليهم؛ لأنَّه يَعيشُ بيْنَهم ويَتقلَّب في أظْهُرهم، وبأنَّ المبعوث واحدٌ من أوْساطهم وذَوي المَكانة فيهم وليس مجهولًا لهم، ولا نائيًا عنهم[4].

سِرُّ اختيار لفظ ﴿أُمَّةٖ﴾ دون غيرها:

مُراعاة المُناسَبة واتِّساع المعنى في لفظة (أمَّة)

لذلك فائدتان، الأولى: مُناسَبة الجمْع بعد (أُمم)، فلا يَصِحُّ (في قوم قد خلا من قبلهم أُمم)، الثّاني: لفْظة ﴿أُمَّةٖ﴾ فيها اتِّساع في المعنى، فقد يُراد بها القوم، وقد يُراد بها القَرْن؛ أيْ: في قرْنٍ من القُرون[5]، وهذا ما ليس في (قوم)؛ لأنَّ القوم نَصٌّ في جماعة الرِّجال[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/140.
(2) عبدالكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/119، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/237.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) الأمين الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ، ص: 161.
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/16.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (قوم).

ومِمّا يُذكر في سِرِّ اختيار لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ دون غيرها أنَّها تَحمل البِشارة لرسول الله ﷺ بأنَّ هذا الدّين سَيَنتشر في العالَمين، ويكون أتْباعُه أمَّة بَدَلًا من بعض هذه القبائل الَّتي تُعارِض دَعْوته.

سِرُّ تنكير لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾:

التَّقليل مع الاتِّفاق الظّاهر على عقيدة الكُفر

لتَنكير لفْظة ﴿أُمَّةٍ﴾ فائدتان: الأولى: التَّقليل، فهُم أمَّة واحدة من مجموع أُمَم كثيرة أُرسِل إليها الأنبياء والرُّسل، يُؤكِّد هذا جمعُ كلمة (الأُمَم) بعدها، فالجمع أفاد الكثرة والتَّنوُّع والتَّعدُّد، الثّانية: دلَّ المُفرَدُ على الاتِّفاق والاتِّحاد على أمْرٍ واحدٍ وهو الكُفْرُ بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

سِرُّ تَرْك وصْف الوسَط للأمَّة في الآية:

تقبيح أمَّة الكُفْر، وتعظيم أمَّة العدل والوسطيَّة

لَم يذْكر وصْف الوسَط هُنا كما في قوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]؛ لأنّ السّياق يتحدَّث عن كُفّار قريش، أهل اللَّجاجة والصَّلف والعِناد مع ذِكْرِ كُفرهم بالرَّحمن: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، فلا يُناسِبه ذكر ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]؛ لأنَّ ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] مدح وتكريم، والتَّكريم لا يُناسِب الكافر، أمّا آية سورة البقرة فلَفظة ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] مُناسِبة أتمَّ مُناسَبة؛ لأنَّ ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] تعني مدحًا وتكريمًا لأمَّةٍ ستكون شاهدة على النّاس، والشَّهادة تقتضي العدل والوسَطيَّة بلا إفراط ولا تفْريط، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، فكانت اللَّفظة مُناسِبةً في هذا السّياق.

دلالة (قَدْ) في: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾:

توبيخ الكفّار لإنكارهم ما حدث للأُمَم السّابقة

من سِمات (قد) في اللُّغة الدَّلالة على التَّوكيد والتَّحقيق، وجَعْل الخبَر طلَبيًّا، وتوظيفها في هذا السّياق جاء توبيخًا للكُفّار أهل العِناد، لأنّهم أُنزلوا منزلةَ مَن يُنْكِر[1] ما حدث للأُمم السّابقة من تعذيب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/264.

ودمار، كأنَّ الأخبار تُنوسيتْ فلَم يَعتبروا بها، مع كون (قد) دالَّةً على تقريب الزَّمن، فكأنَّ الأحداث قريبةٌ منهم يَعرفونها، وفي هذا تهديدٌ بأنَّ ما نالَ الأمَّة الخالية سيَنالهم أيضًا، فَسُنَّة المُنكِرين واحدة.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿خَلَتْ﴾ دون (مَضَت):

إبراز صورة البُعد وطـول العـهد مع التَّحذير من العِقاب

الفعل ﴿خَلَتْ﴾ فيه إشارة إلى بُعْدٍ وانقراضٍ، فتفسير الخُلوِّ هُنا معناه الانقراض[1]، والانقراض طولُ عهْد، وهذا معنًى أصيل في ﴿خَلَتْ﴾ وهو غير موجود في (مضت)؛ لأنَّ المُضي يدلُّ على النَّفاذ والمرور، وفيه تحذير للكفّار بأنَّ مَن لَم يُؤمن سيموت مُتخَلّيا عمَّا كان من الأُنس بأهْله وقُرنائه في دُنياه، وأصله من قولهم: (خلا الرَّجل)، إذا صار بالمكان الَّذي لا أنيس له فيه وانفرَدَ من النّاس، فاستعْملَ ذلك في الَّذي يموت، على ذلك الوجْه[2].

بلاغة المَجاز في: ﴿فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ﴾:

المبالَغة في التَّهديد، وبيان قُبْح جزاء عدم الانتفاع بالأعمال الصّالحة

في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ﴾ مَجازٌ عقليٌّ[3]؛ لأنَّ التَّعبير القُرآنيَّ أسندَ الخُلوَّ إلى المكان، والمقصود أهْلُه والنُّكتة هُنا المبالَغة في التَّهديد والوعيد، وفي الخبَر كناية عن الانقراض والزَّوال، وإلّا فكونها قد خلتْ مِمّا لا يحتاج إلى الإخبار به.

دلالة وصْف ﴿أُمَّةٖ﴾ بجملة ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ﴾:

تحذير مُشرِكي مكَّة من العذاب والفناء الَّذي نالَ الأُمم السّابقة

في الوصْف تعريض بمُشركي مكَّة، وأنَّهم إذا ما استمَرّوا في طُغيانهم، فسيُصيبهم ما أصابَ الأُممَ الخالية[4] بسبب حُمْقهم وغَفلتِهم وشِدَّة عنادهم، مع تحذيرهم بالفناء والزَّوال؛ عِلْمًا بأنّ نعْتَ النَّكِرة دالٌّ على التَّخصيص[5] وكأنّهم خُصّوا بزيادة النَّكال إن هم كفروا بعد ظُهور الأدلَّة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/96.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/588.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/735.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/480.
(5) المراديّ، توضيح المقاصد: 2/947.

دلالة ﴿مِن﴾:

دلَّت ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ على ابتداء الغاية الزَّمانيَّة، والتَّوكيد[1] والاستغراق والعموم، وهذا أفاد أنَّ القوم الَّذين أُرسِل لهم الرَّسول ﷺ مَسبوقون مُباشرة بقوم قد هَلكوا، وأفادت ﴿مِن﴾ هُنا تحديد الزَّمن[2]، فهي تعني الزَّمن المُتقدِّم عليهم مُباشرة، وهذا تهديدٌ ووَعيدٌ؛ لأنَّ الزَّمن الَّذي يَسبقهم بعيد، لكن البَعيد مع الكُفر واللَّجاجة يصير قريبًا مُشاهَدًا؛ تهديدًا ووعيدًا، وفرْق بَيْنَ (قَبْل) و(مِن قَبْل)؛ إذ حَذْفُ الحرْف يَجعل الزَّمان مُحتَملًا للقُرب والبُعد[3]، أمّا ﴿مِن﴾ فتُحدِّدُ الزَّمان وكأنَّ المعنى: إذا كانت الأُمم قد خلتْ ومضَتْ من زمان سابق فإنّا قادرون على أن نَجعلهم ماثلينَ أمام أعْيُنكم.

القُدْرة المُطْلَقة على إحضار الأُمم البعيدة كأنَّها مُشاهَدة

دلالة الإفراد في ﴿مِن قَبْلِهَآ﴾ والجَمْع في: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ و﴿وَهُمْ﴾:

أُفرد الضَّمير في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهَآ﴾، وجُمِعَ في قوله: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ و﴿وَهُمْ﴾ مُراعاةً لِلَّفظ والمعنى[4]، فاللَّفظ: ﴿أُمَّةٍ﴾، وقد عادَ عليها الضَّمير بالإفراد، أمّا المعنى فَعَلى أنَّهم أفراد وجماعات، فعادَتِ الضَّمائر على المعنى فجُمِعَتْ، فقيل: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ و﴿وَهُمْ﴾، ولو اعْتُني باللَّفظ وحده لقيل: (قبلها)، و(وهي تكفر)، و(وعليها)، و(هي)، لكن السّياق نَوَّع الأسلوب لتنشيط الذِّهن وإبرازِ الحدث، فدلَّ الإفراد على القِلَّةِ من حيث اللَّفظ، ودلَّ المعنى على الكثرة فناسَبه الجَمْع، وفي هذا تَنويع أسلوبيّ قرآنيّ فريدٌ.

مُراعاة اللَّفظ والمعنى مع التَّركيز على القِلَّة في اللَّفظ والكثرة في المعنى

سِرُّ التَّعبير بالجمْع: ﴿أُمَمٌ﴾:

في الجمع فوائد: الأولى: الإشارة إلى التَّعدُّد والتَّنوُّع والكثرة،

إبراز الكثرة والتَّكريم والقُدْرة والتَّحذير مع تسليَةٍ للرَّسول ﷺ

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 325.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل، ص: 296.
(3) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/621.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/387.

فليست الأمَّة واحدة؛ وإنَّما هُناك أُمم كُثُرٌ أُرسل إليها الأنبياء والمُرسلون؛ أيْ: "أرسلناك في أمَّة قد تقدَّمَتْها أُمم كثيرة، فهي آخِر الأُمم"[1]، الثّانية: أنّ الجمْع يُناسِب الواقع التّاريخيَّ لإرسال الأنبياء والمرسلين، الثّالثة: الإشارة إلى تكريم الله لِكُلِّ الأُمم؛ لأنَّ الغَرَضَ الهداية والرَّشادُ، فلا تختصُّ أُمَّة من دون أمَّة بهذا الفضل، الرّابعة: الإشارة إلى القُدْرة المُطْلَقةُ والهيمنة والتّحكُّم في شُؤون الخَلْق من قِبَل الله ﷻ، الخامسةُ: "تَسْليَته ﷺ وتَذكيرُه بالصَّبْرِ على قومه"[2]، السّادسة: تحذيرُ الكفّار وتخويفُهم، فَكَما أوْقَعنا بأُسنا ونِقمَتَنا بأولئك، فلْيَحذر هؤلاء من حُلول النِّقَم بهم، فإنَّ تكذيبهم لك أشَدُّ من تكذيب غيرك من المُرسَلين[3].

دلالة اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾:

بيان مهمَّته ﷺ في بلاغ قومه

اللّام هُنا لامُ التَّعليل وقد ألْمَحَتْ إلى أنَّ المُهِمّةَ الرَّئيسة هي تبليغ قومه ما في الكتاب العزيز من الأوامر والنَّواهي والأخبار الَّتي أوْحاها الله إلى الرَّسول ﷺ، فكأنَّ علَّة الإرسال الإبلاغُ عن ربِّه ورَبْط هؤلاء بأعظَم نصٍّ، ليَنْجذِبوا نحْو الحقِّ.

سِرُّ اختيار التِّلاوة دون القراءة:

التِّــلاوة أعَــمُّ وأشــمَــل من القراءة

في التَّعبير بالتِّلاوة في قوله: ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾ سِرٌّ، وهو أنَّ القِراءة جزء من التِّلاوة، فالتِّلاوة قراءة وزيادة؛ فهي - أي التِّلاوة - تعني التَّتبُّع والموالاة والمُتابعة مع تناسقها في اللَّفظ والمعنى، ومنه تلاوة القرآن؛ لأنَّه يتْبعُ بعضهُ بعضًا[4]، فالتِّلاوة: جَعْلُ الثّاني يَلي الأوَّل بلا فصْل[5]، وهذا معنًى ليس موجودًا في القراءة، والنُّكتة الإشارة إلى مُتابَعة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/529.
(2) الغرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/355.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/395.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/338.

النَّبيِّ ﷺ قومَه في تبليغ أوامر الله ونواهيه، وذلك من باب حِرْصه عليهم؛ لأنَّه كما وصَفه ربُّه بقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التّوبة: 128].

سِرُّ التَّعبير بالمُضارع ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾:

ضرورة الاجتهاد في إيصال الدَّعوة

في تَوظيف الفعل المضارع إشارةٌ إلى ضرورة الاجتهاد ومواصَلة التِّلاوة، ليلَ نهارَ، تحفيزًا لِهمَّة الرَّسول ﷺ في إيصال مَهامِّ الدَّعوة، ففي المضارع دَوامٌ واستمرار، والقيام بما هو مُكلَّف به على الدَّوام لا الانقطاع، وفيه إلهاب وتهييج لأُمَّته بضرورة التِّلاوة والاتِّباع.

وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالمُضارع تعليمُ الدُّعاة في الأمَّة الصَّبرَ ومواصلة الدَّعوة في تبليغ أمر الله إلى الأمَّة؛ تأسّيا برسول الله ﷺ.

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمُ﴾:

التَّحريض على الإنْصات والاستماع لِما فيه هدايتهم

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على المنصوب ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ جاء من قَبيل الإبْهام في: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ ثُمَّ البيان في: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [الشّرح: 2]، وفيه ما لا يَخفى من ترقُّب النَّفْس إلى ما سيردُ، وحُسن قَبولها له عند وروده عليها[1]، ففي التَّقديم تحريضٌ على ضرورة الإنصات والاستماع لِما فيه هدايتهم.

دلالة تعدّي الفعل ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾ بـ(على):

لا عُلوَّ من دون مُتابَعة القرآن الكريم

حرْف الجَرِّ (على) من مَعانيه الاستعلاء المَعْنويُّ[2]، والاستعلاء رِفْعة وعلوٌّ، وكأنَّ هذا الكلام المَتْلوَّ يَعلوهم ويَفوقهم شَرَفًا ومكانة، لِما يَحويه من إشاعة النّور والهداية للبشريَّة، وفيه إشارة إلى ضرورة أن يَرتفعوا ليصِلوا إلى مكانته ومنزلته.

سِرُّ التَّعبير بالإضمار في: ﴿عَلَيْهِمُ﴾:

سِرُّ التَّعبير بالإضمار في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمُ﴾؛ مُراعاة المعنى،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 476.

فالأمَّة جماعة ناس يَعقلون، فجاء بـ (هم)؛ مُراعاة للمعنى، وفِرارًا من توظيف الاسم الظّاهر ﴿أُمَّةٍ﴾ حتّى لا يكون ثَمَّ تَكرارٌ للَّفظ ثلاث مرّات من دون نُكتة، ثُمَّ إنَّ من القواعد المُقرَّرة أنَّ تَكرار النَّكِرة يعني أنَّ الكلمة الثّانية غيرُ الأولى[1]، فلو كُرِّرتْ لفظة ﴿أُمَّةٍ﴾ لَجازَ أن يُظَنَّ أنّ (أمَّة) هُنا غير (أمَّة) هُناك، فالتَّعبير بالضَّمير لدَفْع توَهُّم غير المُراد.

مُراعاة المعنى، والبُعد عن التَّكرار

سِرُّ التَّعبير عن القرآن بـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾:

السِّرُّ في ذلك وصْف القرآن بعظَمة الشَّأن في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، ويُشعِرُ بهذا الوصْف ذِكر المَوصول غير جارٍ على موصوف، إضافة إلى التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾؛ لأنَّه أعرَف وأخَصُّ من (ما) الَّتي تَشترِك في المُفرَد والمُثنَّى والجمْع والمُذَكَّر والمُؤنَّث مع إبهامِها، وتُطلَق على كُلِّ شيءٍ[2]، وما ليس بِشَيء[3]، فكان الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ نصًّا في الإفراد، وكونه مُختصًّا من شأنه أن يكون مَعْهودًا لدى السّامع ممّا يَدُلُّ على عُلوِّ الشَّأن[4]، مع دلالة صِلَة الموصول ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ على أنَّ القُرآن ليس من عند محمَّد ﷺ، فهو وحْيٌ من ربِّه ﷻ.

عُلوُّ الشَّأن وكون القرآن من عند الله

دلالة التَّعبير بـ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ لا (أنزلنا):

في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ توظيف للفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ لاتِّساع معانيها؛ فالوحْي يُطلَق على الإشارة والكِتابَة والرِّسالة والإلْهام والكلام الخَفي وكلِّ ما ألقيته إلى غَيْرِكَ، وكأنَّ الوحْي إنزالٌ وزيادة، إضافة إلى ما اختَصَّ به من الخَفاء والإسرار[5]، وفي الوحْي إلماحٌ إلى تعدُّد طَرائقِ الوحْي على رسول الله ﷺ.

إفادة اتِّساع المعنى في الفعل (أوحى)

(1) العُكبَريّ، اللّباب في علل البناء والإعراب: 2/137.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/228.
(3) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 2/217.
(4) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 34.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وحي).

دلالة نون العَظَمَة في: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾:

إظهار التَّشريف والاهتمام وكمال العِناية

في التَّعبير بنون العظَمة في قوله: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فوائد: الأولى: تربية المَهابة وإدخال الرَّوعة بإسناده إلى المولى ﷻ[1]، والثّانية: تشريف الموحى إليه وهو النبي ﷺ واستِعظام الإقدام على تكذيبه، الثّالثة: كمال العناية بالموحَى وهو القرآن الكريم، الرّابعة: الهَيمنة والقُدرة المُطلَقة للموحي وهو الله ﷻ، الخامسة: مُناسَبة نون العظَمة هُنا لِنون العظَمة في ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾.

دلالة تعدّي الفعل ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ بـ ﴿إِلَيْكَ﴾:

تكريمه ﷺ بانتهاء الوحْي إليه

قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، من معاني (إلى) انتهاءُ الغايَة[2]، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الرَّسول هو المُنتَهَى في الوحْي، فلا رسولَ بَعده، وفي (إلى) قصْديَّة وتكريمٌ للرَّسول ﷺ بأنَّه مُستحقٌّ لهذا الإيحاء، فكأنَّ (إلى) دلَّتْ على الاختصاص أيضًا، فضَمَّت معنى اللّام.

دلالة كاف الخِطاب في قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾:

بيان عُلوِّ المكانة مع الاختصاص والتَّشريف

الكاف تُشير إلى التَّكريم والتَّشريف والاختصاص، فمِثْلك يا مُحمَّد جَدير بأن يَحملَ الأمانة ويُبلِّغها بحيث تكون أنت المُنتَهى، فكاف الخِطاب دليلٌ على عُلوِّ طبَقَته وسُموِّ رُتْبته[3] مع لذَّة الخِطاب بين الحبيب وحبيبِه.

دلالة العطْف في: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾:

بيان استمرار أهل الكُفر على كفرهم وعِنادهم

جُملة ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عطْفٌ على جُملة ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾؛ أيْ: أرسلناك بأوْضَح الهداية وهم مُستمرُّون على الكُفْرِ لَم تَدخُل الهداية قلوبَهم، فالضَّمير عائد إلى المُشركين المَفْهومينَ من المقام لا إلى أمَّة لأنَّ الأمَّة منها مؤمنون[4]، وتحتمل الواو الحاليَّة؛ أيْ: حال هؤلاء أنَّهم يَكفرون بالرَّحمن[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/334.
(2) المراديّ، الجَنى الدّاني، ص: 385.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/149.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/146.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/187.

سرُّ التَّعبير بالضَّمير ﴿وَهُمْ﴾ عن الكُفّار:

تخصيص الكُفّار بالذِّكر مع كراهة التَّكرار

في الضَّمير من قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، إشارة إلى قوم بأعْيُنهم وهم الكفّار، وفي الضَّمير تحديدٌ وتخصيص للكُفّار المَفهومينَ من السّياق، ولو عبّر بالاسم الظّاهر (وأمَّة تَكفُر) لكان المعنى غيْرَ دَقيق؛ لأنَّ الأمَّة فيها المؤمنون وغيرهم[1]، فكان الأدَقُّ توظيف الضَّمير ﴿وَهُمْ﴾ لا الاسم الظّاهر ﴿أُمَّةٍ﴾، ويُضاف إلى ذلك مَلْحَظُ كراهة التَّكرار من دون فائدة (أمَّة - أُمم - أمَّة).

سِرُّ التَّعبير بالكُفر لا الشِّرك: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾:

التّأكيد على أنَّ حالة الكفّار هي حالة الإنكار التّامّ واللَّجاجة وجُحود النِّعمة

إيثار القُرآن للكُفر دون الشِّرك آتٍ من أنَّ الكُفْرَ ستْرٌ للنِّعمة، والسّياق هُنا سياق الجَحْدِ والإنكار وعدم الإيمان بالرِّسالة والرَّسول والقرآن، مع عِلمهم أنَّ القُرآن كلام الله، فكأنَّهم سَتَروا ضياء عقولهم[2] بالكُفر، أمّا الشِّرك فهو اعتراف بوجود الخالق لكنَّ معه خالقًا آخَر، فتَجْعل لله شَريكًا في رُبوبيَّته[3]، فكأنّهم يَصرفون العبادة لغير الله، وهذا لا يُناسِب المقام هُنا، فحالَتُهم هي حالة الإنكار التّامِّ واللَّجاجة؛ فكان الفعل (كفر) أنسَبَ من (أشرك).

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿يَكْفُرُونَ﴾:

بيان الإصرار في مُعاداة الله ورسوله بالاستمرار على الكُفر

الفعل المُضارع ﴿يَكْفُرُونَ﴾ دالٌّ على تَجدُّد الكُفر واستمراره، بل والإصرار في مُعاداة الله ورسوله بستْرِ النِّعم حالًا بعد حال ووَقتًا بعد وقت، مع استحضار صورة كُفرهم، فكأنَّ المَرءَ يراه ماثِلًا أمام عينيْه، وهذا تصميم على العِناد والعُتوِّ والمُضي فيهما.

دلالة التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾:

التَّعبير بالجملة الاسميَّة القائمة على الثَّبات لا الحدوث في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/146.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شرك).

عَراقة أهل مكَّة في الكُفْرِ بحيث صاروا معروفينَ به

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾، دالٌّ على استقرار الكُفْرِ في نفوسهم ورسوخِهم فيه، وعراقة تمسُّكهم به بحيث لا ينفكّون عنه، فهم عُنوانٌ للكُفْرِ مَوصوفونَ به، يُؤَكِّدُ ذلك أنَّ الاسم موضوعٌ للدَّلالة على ثَبات المعنى من غير أن يَقتضيَ تجدُّدَه شيئًا بعد شيءٍ، وأمّا الفعل فمَوضوعه على أنَّه يَقتضي تجدُّدَ المعنى المُثبَت به شيئًا بعد شيءٍ[1].

سِرُّ الإظهار في: ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾:

تخصيص المعنى وعــدَمُ إطلاقه لمَنْع اللَّبس

في قوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ نصَّ على الاسم (الرَّحْمَنْ) دون الضَّمير تحديدًا وتخصيصًا للمَكفور به، فالمكفور به هو الرَّحمن، في حين أنَّ التَّعبير لو جاء بالضَّمير فقيل: (يَكفرون به) لعاد الضَّمير على ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ﴾ وهو القرآن في قوله تعالى: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، والضَّمير يعود على أقرَب مَذكور كما يقول النُّحاة[2]، وأقرب مَذكور يُناسِب الضَّمير الهاء في (به) هو الاسم الموصول (الَّذي)، وليس هذا مقصود النَّصِّ القرآنيِّ، ومن ثَمَّ كان التَّعبير بالاسم الظّاهر (الرَّحْمَنْ) دون الضَّمير (به) هو الأحْوَطَ والأنسَب لمُقتضيات المعنى.

سِرُّ تقييد كُفرِهم ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾:

إنــكــار اسـم الرَّحـمـن إنـكـارٌ لصِفَة الرَّحمانيَّة في الله

ذَكَرَ علماء التّفسير عدَّة رِوايات في سبب نزول الآية الكريمة ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، واستدلّوا منها على هذا التَّقييد: فقد نُقل عن قتادَة، وابن جُريج، ومقاتِل أنَّ الآية نزلَتْ في مُشركي مكَّة لمّا رَأوا كتاب الصُّلْحِ في الحُديبية، وقد كَتب فيه عليٌّ ﷺ: (بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم)، فقال سُهيل بن عمرو: (ما نعرِف الرَّحمن إلّا مُسيلمة)، وقيل: سَمِعَ أبو جهْلٍ قولَ

(1) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 181.
(2) الصبّان، حاشية الصبّان: 2/458.

رسول الله ﷺ: «يا الله يا رحمن»؛ فقال: (إنَّ مُحمَّدًا يَنهانا عن عبادة الآلِهة وهو يدعو إلَهيْن) فنزلَتْ[1].

ومنها ما رويَ عن الضَّحّاك، عن ابن عبّاسٍ قال: نزلَتْ في كفّار قريش حينَ قال لهم النَّبيُّ ﷺ: اسْجُدوا لِلرَّحْمنِ، فقالوا: وما الرَّحْمنُ؟ فأنزَل الله تعالى هذه الآية، وقال: قُلْ لهم يا محمَّد: إنّ الرَّحمن الَّذي أنكَرْتُم مَعرِفتَه ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

نكتة اختيار اسم (الرَّحمن):

إبـــراز تَـعـدُّد مَظاهر كُفرهم بالله وبالقرآن مع قَباحَة ذلك

في اختيار اسم الرَّحمن في قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دون اسم الجلالة (الله) فوائد، منها: إثبات أنَّ الرَّحمن من أسمائه الحُسنى ونُعوته العُليا، وقد كانوا يَتجافونَ هذا الاسم الكريم[2].

ومنها: الدَّلالة على أنَّ كُفرَهم بالرَّحمن تضمَّن كُفرَهم بالقُرآن ومَن أُنزِل عليه، وكان الكُفر بالمُنْعِم في غاية القَباحة[3].

ويفيد أيضًا الإشارة إلى كثرة حِلْمِه وطول أناته عليهم، وتقبيح حالهم في مُقابَلتهم الإحسان بالإساءة والنِّعمة بالكُفْرِ بأوْضَح صورة، وهم يدَّعون أنَّهم أشْكَرُ النَّاس لِلإحسان وأبعَدُهم من الكُفران[4].

إضافة إلى الإشارة إلى أنَّ الإرسال ناشئٌ من الرَّحمة، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: 107][5]، ولِكُفرهم بالرَّحمن حُرموا هذه الرَّحمة.

السّادسة: بيان أنَّهم لَم يَشكروا نعمة هذا الوحْي الَّذي هو مَدار المَنافعِ الدّينيَّة والدُّنيويَّة[6].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/153.
(2) الصّبّان، حاشية الصّبّان: 2/458.
(3) الصّبّان، حاشية الصّبّان: 10/339.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/339.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/283.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/283.

سِرُّ تقديم كُفرهم ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾:

بيان اللَّجاجة والتَّصميم على كُفران كُلِّ دعوة للوَحدانيَّة

مَجيءُ الآية على أصْل التَّرتيب اللُّغويِّ، فعل وفاعل ومُتعلّقاتهما، في قوله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، حيث لَم يَقُل: (وهم بالرَّحمن يَكفرون) فيه إشارة إلى أنَّ كُفرَهم ليس واحدًا، وإنَّما الكُفْرُ متعدِّدٌ فكُفرهم بالرَّحمن يَلزمه كُفْرٌ بما أنزله من القرآن الكريم، وبمَن أرسله الرَّسول الكريم، أمّا أسلوب القصْر المُتمثِّل في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ على الفعل ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ فلا يُعطي هذا المعنى؛ وإنَّما يَقصر الكُفران على اسم الرَّحمن، وهذا ليس مُرادَ النَّصّ القرآنيِّ.

دلالة الأمر في: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي﴾:

الإشعارُ بامتِثال رسول الله ﷺ تبليغ الدَّعوة وحِفْظِ الله له

في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي﴾ أمْرٌ، وفي دلالته فوائد، الأولى: الإشارة إلى تنفيذ أمر الله بالمواجَهة الصَّريحة وتبليغ ما أُرسِل به، فَلِلوَحدانيَّة رسولٌ يَذودُ عنها بكلِّ قوَّة وشُموخ. الثّانية: التَّأكيد على إعلان نُبوَّته ورسالته ﷺ في مواجَهة إنكار المُشركين. الثّالثة: الدَّلالة على وقوف الله بجانب رسوله في تبليغ الدَّعوة كما قال لِموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: 46]، فكأنَّه يقول للرَّسول: بَلِّغ الدَّعوة وأنذِر عَشيرتك من دون خَوف فنحْنُ معك تأييدًا ونُصْرَةً.

دلالة الضّمير في قوله: ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

التَّأكيد على وحدانيَّة الله وإن تعدَّدت أسماؤه

ضمير الفصْل ﴿هُوَ﴾ عائد إلى (الرَّحمن)؛ أيْ: "إنَّه إله واحدٌ وإن اختلَفَتْ أسماؤه"، وفيهِ الرَّدُّ على الكافرين المُنكرين لاسْم الرَّحمن، كَما أنَّ الإتيان به جاء على جهة المُبالَغة في تعظيم وصْف الرَّحمن، وفيه تشويق للنَّفس؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا كان مُبهَمًا فالنُّفوس مُتطلِّعة إلى فَهْمه، ولأجْل ما فيه من الاختصاص بالإبهام لا يَكاد يَرِد إلّا في المَواضع البَليغة المُختصَّة بالفخامة[1].

(1) العلويّ، الطّراز: 2/76.

سِرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّة ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

إقـــــراره ﷺ بـربـوبيَّـتـه ﷻ مـع الـتَّـعـريـض بـالـكُـفّـار في شِركهم

ورَدَ التَّعبير بالرُّبوبيَّة في قوله: ﴿هُوَ رَبِّي﴾ دون اسم الجلالة (الله)، والسِّرُّ في ذلك الاعتماد المُطلَقُ على مَن ربّاه وتولّى أمره وتَوْجيهه، فهو سُبحانه المُتولّي شأنَه وحاله؛ لذلك أُمِرَ ﷺ أن يقول: "إنَّه هو المُربّي لي بالإيجاد وإدرار النِّعَم، والمحسِنُ إليَّ لا غيره، لا أكفُر إحسانَه كما كَفَرْتُموه أنتم"[1]؛ فلَفْظة (رَبّ) فيها مُبالَغةٌ في الوصْف[2] وإقراره بالرُّبوبيَّة تمسُّك بالعقيدة، وتصميمٌ على مُعاداة عادات الكفّار في اتِّخاذ الشَّريك، مع التَّعريض بكُفْرهم وعِنادهم، كما أنَّ الرَّبَّ سبب في وصول الرَّسول ﷺ إلى درجة الكمال؛ لأنَّ الرَّبَّ في الأصل بمعنى التَّربية، وهي تبليغُ الشَّيءِ إلى كَماله شيئًا فشيئًا[3].

دلالة الإضافة إلى المُتكلِّم ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

الـتَّـشـريـف والـتَّـكـريـم لرسول الله ﷺ مع العناية به

في الإضافة إلى المُتكلِّم من قوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾ فائدتان؛ الأولى: إضافة (رَبّ) لياءِ المُتكلِّم إضافة تشريف وتكريم للرَّسول ﷺ، وهُم لا يستحقّون هذا التَّكريم والتَّشريف في موقف العِناد والمُكابرة، فالموقف موقف مواجهة ودفاع عن العقيدة ضدَّ المُنكِرين والجاحدين، ومن ثَمَّ كانت الإضافة للياء هي الأنجَع، الثّانية: إذا كان التَّعبير: (قُل هو ربّي وربُّكم)، فإنَّه لا يَحْسُنُ أن يكون تمهيدًا لِما يأتي وراءه من نَظْم، فبَعْده: (عليه توكَّلت)، ولو قال (ربُّكم) لكان التَّعبير: (عليه توكَّلوا)، أو: (توكَّلنا)، وهُم يَكفرون، فكَيف يتوكَّلون؟

دلالة التَّعبير بالجُملة الاسميَّة: ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

شِـــدَّة الـيـقـين مـع عـظَـمـة جوِّ الـتَّـربـيـة وأمـانـة الـتَّـبـلـيـغ

التَّعبير بالجملة الاسميَّة فيه فوائد، الأولى: مَنْح الموقف الاستقرار والثَّبات والثِّقة في مَوعوده ﷻ، والتَّصميم على مُجاهَدة الكفّار بهَدْم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/338.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.

مُعتَقداتهم، والثّانية: أنّ بناء الجُملة على الاسم ضَمير الشّأن ﴿هُوَ﴾ يَرسم فخامة الموقف وعظَمة جوِّ التَّربية الَّذي تَلقّاه الرَّسول ﷺ، ويُظهر شِدَّة تعلُّقه بربِّه، الثّالثة: أمانة الرَّسول ﷺ في التَّبليغ عن ربِّه، فربُّه مَن لقَّنه التَّعبير عن الرُّبوبيَّة بهذه الطَّريقة الفَذَّة.

سِرُّ الاحتراس بقوله: ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

التَّأكيد على الوحدانيَّة بعد الرُّبوبيَّة

في قوله: ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى إبطال إشراكهم مع الله تعالى في الإلهيَّة غيرَه، فهو احتراسٌ لِرَدِّ قولهم: إنَّ مُحمَّدًا ﷺ يَنْهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهَيْن؛ فكان قوله: (لا إله إلّا هوَ) دالًّا على أنَّ المَدعوّ بالرَّحمن هو المَدعوّ بالله؛ إذْ لا إله إلّا إله واحد[1].

نُكتة العُدول عن التسمية بالرّحمن:

مُناسَبة سياق الـهـلاك في المُلْك لَفْظة (الرَّحمن)، وأثَر الرُّبوبيَّة في الرَّحمة في الرَّعد

العُدول عن ذِكْر الرَّحمن في قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ مع مناسَبة ذِكْر الرَّحمن في الآية كما في سورة المُلك؛ للمُناسَبة وتَشاكل السّياقَيْن، ففي سورة المُلك قبْل الآية جوٌّ من الإهلاك أو توقُّعه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك: 28 - 29]، فكان الأليَق بالمَقام ذِكْر صِفة الرَّحمة للخالق، فهو الَّذي يُنجّيهم من الهلاك، إضافة إلى أنَّ كلمة الرَّحمن تَكرَّرت وصْفًا لله في آيات عديدة، فكان ذِكْرُ الصِّفة مُتابِعًا لجوِّ الرَّحمة المُنقِذ من الإهلاك، أمّا ذِكْرُ (الرَّحمن) في سياق سورة الرَّعد فيَنْبو عنه النَّظْم؛ لأنَّه تَكرار مُخِلٌّ، "وهم يَكفرون بالرَّحمن، قُلْ هو الرَّحمن" ولا معنى مُفيدًا في هذا السّياق، فالمُناسب تأكيد قيمة الرَّحمة كأنَّ الرُّبوبيَّة سببُها؛ لذا تلاها قوله ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ فناسَب كلٌّ موضِعَهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/141.

دلالة التَّعبير بجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

الـجـمـع بين تـوحـيـدَي الـرُّبـوبـيَّـة والأُلوهيَّة

في جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحدانيَّة مُطلَقة، فلا شريك له ولا مُنازع، أمّا ﴿هُوَ رَبِّي﴾ فالمُراد بها الرُّبوبيَّة، فقد جَمعَت الجملتان "التَّوحيدَيْن: توحيدَ الألوهيّة، وتوحيدَ الرُّبوبيّة"[1]، ولا تُغني جُملةٌ عن جملة، فلكلٍّ دَوْر في تنزيه الخالق ﷻ.

سِرُّ التَّعبير عن الوحدانيَّة بـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

عـدَمُ الـتَّـكـرار مع الـنَّـصّ على الإلـهـيَّة وعـدمُ النَّظير

في ذلك فائدتان، الأولى: البُعد عن التَّكرار الَّذي يُثقل الأسلوب، فالتَّعبير المُحتمل (هو ربّي ربّي الواحد)، وهذا أسلوب يَنبو عنه نَظْم القرآن الكريم، والثّانية: (ربّي الواحد) جملة احتماليَّة الدَّلالة على الوحدانيَّة، أمّا جُملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فنصٌّ في عدم وجود إله غير اللّه، والثّالثة: في العبارة القرآنيَّة "مَدُّ التَّعظيم في نحو: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ويُسمى مَدّ المُبالَغة، وإنَّما سُمِّي مَدّ المُبالَغة لأنَّه طَلَبٌ للمُبالَغة في نَفْي إلهيَّة سوى اللّه تعالى، وهذا مذهب معروفٌ عند العرَب لأنَّها تمدّ عند الدُّعاء وعند الاستغاثة وعند المُبالغَة في نفْي شيء"[2].

دلالة القصْر في جُملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

قـصـر الإلـهـيَّة على الله وحدَه وإزالـة الـشَّـكّ والإنكار

قصر الصِّفة على الموصوف في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فصِفة الألوهيَّة مقصورةٌ على ذات اللّه سبحانه قصْرًا حقيقيًّا؛ أيْ: وما إلهٌ قطُّ في الوجود إلّا إله موصوف بالوحدانيَّة لا ثاني له، وهو اللّه وحدَه لا شريك له، والغرَض هُنا تقرير الكلام وتَمْكينُه في الذِّهن لدَفْع ما فيه من إنكار أو شكٍّ[3].

دلالة جَمْعِ وصْفَي الرُّبوبيَّة والوحدانيَّة:

الجمْع بين وصْفَي الرُّبوبيَّة والوحدانيَّة في قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/418.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 1/336.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 3/5.

الإقـــــــرار بـالـوحـدانـيَّـة والـتَّـمـهـيـد للتَّوكُّل عليه

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إقرار للوحدانيَّة ونفْيٌ لِما عسى أن يُتوَهَّم من أنَّ في الوجود إلهًا لكن لا يستحقُّ العبادة[1]، إضافة إلى أنَّ جُملة: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ نتيجة للألوهيَّة والوحدانيَّة، لأنَّه لمَّا توحَّد بالرُّبوبيَّة كان التَّوكُّل عليه، ولمَّا اتَّصَف بالرَّحمانيّة كان المَتاب إليه، لأنَّ رحمانيَّته مظِنَّةٌ لقَبوله تَوبةَ عبدِه[2].

دلالة العدول عن التَّعبير بـ(لا إله إلّا الله):

التَّفرُّد بالألوهيَّة ومَـنْـع الـوهْـم واللَّبس

عبَّر النَّظْم الكريمُ بالضَّمير ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ للتَّأكيد على وحدانيَّته سبحانه، ولدَفْع تَوهُّم ما قد يكون محتملًا، فالإتيان بلفظ الجلالة (الله) هُنا قد يوهِمُ غير المُراد؛ وهو أنَّ هُناك إلهَيْن معبودَيْن، أوَّلهما الرَّبُّ، وثانيهما الله، فكان التَّعبير بالضَّمير هو المانِع من اللَّبس والتَّعدُّد.

نُكتة الاكتفاء بِذِكْرِ الوحدانيَّة:

الـتَّركـيـز على الوحدانيَّة ونَفْي تعدُّد الآلهة

في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اكتفاء بذِكر الوحدانيَّة، مع وجود بعض الصِّفات الأخرى في نحو: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: 163] و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: 6] ونحو ذلك، والاكتفاء بالوحدانيَّة هُنا فيه إشارة إلى أنَّ الغرَض التَّركيزُ على التّوحيد وعدَم الشَّريك في المُلْك، ومَجيءُ صِفات أخرى في هذه الآية يُزاحِم الوحدانيَّة في هذا السّياق، وفائدة أخرى وهي أنَّ المُشركين عندما وُصِفَ الله بالرَّحمن قالوا: وما الرَّحمن؟ فظنّوا أنَّ للرَّسول إلَهَيْن، وهذا مُحتَمل هُنا لضَعْف عقيدتهم الَّتي بَنَوْها على الشِّرك من خلال فَهمهم الخاطئ من لفظ الرَّحمن، فظنّوا وجودَ آلهة مع الإله الواحد الأحد، فاكْتَفى القرآن بِذِكْرِ الوحدانيَّة دون زيادة عليها، فكانت الوحدانيَّة مُغْنِيَة عن ذِكْر وصْفٍ آخَر.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/428.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/139.

بلاغة الاعتراض في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

اختصاص التَّوكُّل عليه مع بلاغة الانتقام

الاعتراض أكّد به اختصاص التّوكُّل عليه سُبحانه وتفويض الأمور عاجلًا وآجلًا إليه، ثُمَّ إذا كان وصْف الرَّحمن يُفيد المُبالَغة في الرَّحمة فقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يدلُّ على شِدَّة الانتقام من الكافرين، وهو تمهيد أيضًا لقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، ثُمَّ هو اعتراضٌ لتَوكيد ﴿هُوَ رَبِّي﴾ فظهرَتْ بلاغة الاعتراض[1].

علاقة جُملة ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ بما قَبلَها:

التَّوكُّل لا يكون إلّا على الواحد الأحد

الفصْل هُنا جاء بالجملة الاعتراضيَّة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى أنَّ التَّوكُّل على الله أساسُه الوحدانيَّة الحقَّةُ، فالمُتَوكِّل معتمِدٌ على قويٍّ واحد لا شريك له؛ فبيْن الجُملتيْن تلاحُم قويٌّ؛ لأنَّهما سبَب ونتيجة.

بلاغة القصْر بتقديم: ﴿عَلَيْهِ﴾:

قصر التَّوكُّل على الله ﷻ والاستغناء عن نُصرة الكفّار

في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ تقديم للجارِّ والمجرور، وذلك التَّقديم دالٌّ على الاختصاص[2] والقصْر، وهو قصر حقيقيٌّ لصِفةٍ على مَوصوف، فلا مُتوَكَّلًا عليه إلّا الله، هو يَكفيني ويَحميني عند مُجاهدَتِكم ودَفْعكم، فكأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: أخُصُّك وحدَك يا الله بالتَّوكُّل عليك؛ لأنَّك نِعْمَ الوكيل، وفيه رسالة للكُفّار بالاستغناء عنهم، فلا حاجة له إلى تأْييدهم؛ لأنَّهم لا يَملكون نفْعًا ولا ضَرًّا، ويُضاف إلى ذلك "المُطابقة اللَّفظيَّة في تَناسُب الآي وتشاكُلِها"[3] بمناسَبة ما بَعدها في تقدُّم الجارِّ والمَجْرور: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

نكتة اختيار صِفة التَّوكُّل:

المُناسَبة اللَّفظيَّة مع الاستسلام التّامّ للخالق

جاء النَّظْمُ الكريم بصِفة التَّوكُّل دون غيرها في قوله تعالى:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.
(3) العلويّ، الطّراز: 2/40.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، لمناسَبتها للرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿هُوَ رَبِّي﴾، فالتَّوكُّل عليه من عَطاءات الرُّبوبيَّة[1]، ويُضاف إلى ذلك ما يَحتمله لفْظ التَّوكُّل من المعاني اللُّغويَّة الَّتي تَدُلُّ على الاستسلام التّامِّ من العبد لربِّه، فهو حافظه وكافيه، وعليه الرُّكون والالتجاء إليه[2].

سِرُّ التَّعبير بالماضي لا المضارع في: ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾:

إبـــراز ثَـبـات التَّوكُّل ودوامِه والـثِّـقـة بالله تعالى

في الفعل الماضي إيماءَةٌ إلى الثَّبات والاستقرار، فلا زَحْزحة ولا زَعْزعة، وهذا يُناسِبه الفعل الماضي، ثُمَّ إنَّ الفعل الماضي يَضُمُّ في جَوْفه الفعلَ المضارع الدّالَّ على دوام التَّوكُّل واستمرارِه، فمَن ثَبَتَ تَوكُّله في الزَّمن الماضي لزِمه استمرار التَّوكُّل ودوامه لِما رأى وسَيَرى من خيرات ونِعَم الرَّبِّ المُنْعِم والمُتفضِّل.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ دون ﴿تَوَكَّلۡنَاۖ﴾:

مُناسبة ضمير المتكلّم لسياقه من الإفراد والجمْع

جاءت الإضافةُ إلى ضمير التَّكلُّم ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ دون ﴿تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: 29]؛ لأنَّه حديثٌ عن نفْسِه لا عن جماعة مُؤمنة؛ لذا كان الإفراد، إضافة لِما يَليه: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾؛ أيْ: مَتابي لا (مَتابُنا)، أمّا في سورة المُلْك فالسّياق يُناسِبه ﴿وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: 29]؛ لأنَّها تُناسِب الفعل الماضي المُسنَد إلى (نا) الفاعِلينَ قَبلَها: ﴿ءَامَنَّا﴾ [الملك: 29] في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: 29]، فكان ﴿تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: 29] مُماثِلًا له في الضَّمير، وهذا من التَّشاكُل اللَّفْظيِّ في نظْم الآية الكريمة.

سِرُّ القصْر بالتّقديم في: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾:

المُـشـاكَـلـة اللَّفظيَّة وقصْر الـتَّـوبـة إلـيـه وحدَه

في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ تقديم للجارِّ والمجرور، وفي هذا التَّقديم فائدتان، الأولى: مُناسَبة المَعطوف للمعطوف عليه، فالجملة السّابقةُ عليها: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ تقدَّم فيها الجارُّ والمجرور، لذا كان من المُناسِب تقديم الجارِّ والمجرور في: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾، فثَمَّ مُشاكَلةٌ بيْن

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/139.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وكل).

الجملتَيْن. الثّانية: ذلك التَّقديم دالٌّ على الاختصاص[1] والقصْر، قَصْر حقيقيّ لصِفةٍ على مَوصوف، فلا مَتاب إلّا إلى الله، هو وحدَه مَن نَتوب إليه ونستغفرُه؛ لأنَّه المعبودُ بحقٍّ، وله الحساب وحده، وله الثَّواب والعِقاب لا شريك له.

سِرُّ اختيار ﴿مَتَابِ﴾ دون (المَرجِع):

المَتاب أخَصُّ من المرجِع

المَتاب في القرآن أخَصُّ من المرجع، فالمَرْجِعُ يكون لكلِّ إنسان سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا؛ ففيه عموم، ودليل ذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران: 55] للمؤمن والكافر، وكذا: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٤٨﴾ [المائدة: 48]، أمّا المَتاب فإنَّه يَختصُّ بالمؤمنين كما هُنا، وفي الآية الحاديَة والسَّبعين من سورة الفُرقان: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ۝٧١﴾ [الفرقان: 71]، وكلاهما دالٌّ على انتهاء المَقْصدِ، لكن المَتاب فيه رجوعٌ مع تَوبة، أمّا المرجِع فلا يشترط فيه توبة.

دلالة تعدّي ﴿مَتَابِ﴾ بحرْف الجَرِّ (إلى):

الانتهاء والمَصير إليه ﷻ

في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾، تَضمَّن ﴿مَتَابِ﴾ معنى الرُّجوع إلى ما يأمر الله به فعُدّي المَتاب بحرْف الجَرِّ (إلى)[2]، إضافة إلى ذلك فحرْف الجَرِّ (إلى) يَدُلُّ على انتهاء الغاية المكانيَّة والزَّمانيَّة، بمعنى أنَّ المَصير إلى الله، فهو المُنتهى والمَرْجِعُ؛ فكان المُناسِب حرْفَ الجَرِّ (إلى).

سِرُّ التَّعبير بالمصْدَر الميميّ ﴿مَتَابِ﴾:

في المصْدر الميميّ فضْل مبالَغة غير موجودة في الصَّريح

سِرُّ التَّعبير بالمصْدر الميميّ ﴿مَتَابِ﴾ أنَّ المَتاب فيه فضْل مُبالَغة ليست في التَّوبة[3]، والمُبالَغة آتيَةٌ من الفرْق بين المَتاب والتَّوبة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.

فالمتاب؛ أيْ: التَّوبة التّامَّة، وهو الجمع بين تَرْك القبيح وتَحرّي الجميل، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[1] فكان المَتاب توبةً وزيادة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مَتَابِ﴾ دون (مَتابي):

التَّخفيف اللَّفظيُّ مع التَّناسُب في نهايات الآيات

أوثِرَ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿مَتَابِ﴾ دون (متابى) من باب التَّخفيف، ذلك أنَّ أصْل ﴿مَتَابِ﴾: مَتابي - بإضافة ياء المتكلِّم - فحُذفَت الياء تخفيفًا وأُبقِيَت الكسرة دليلًا على المحذوف[2]، ويُضاف إلى ذلك ملاحظَة التَّناسُب بين نهاية الآية ﴿مَتَابِ﴾، ونهاية الآية الَّتي تَليها ﴿عِقَابِ﴾ بحذْف الياء هي الأخرى.

دلالة الأمر بشهادة التَّوكُّل والتَّوبة في الآية:

فضل التَّوبة، وأهميَّة الإقلاع عن الذَّنب مع أهميَّة السَّعي لتبليغ الدَّعوة

أمرت الآية الكريمة النبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام بإظهار حال التَّوكُّل والتَّوبة في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾، وفي هذا الأمر فوائد[3]، الأولى: إبانةٌ لفضل التَّوبة ومِقْدارِها عند الله تعالى وأنَّها صِفَةُ الأنبياء. الثّانية: بَعْثٌ للكَفَرة على الرُّجوع عمّا هُم عليه بأبْلَغ وجْه وألطَفِه، فإنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أُمِر بها وهو مَعصومٌ مُنزَّهٌ عن شائبة اقتراف ما يُوجبها من الذَّنب، فتَوْبتهم وهم عاكفون على أنواع الكُفر والمعاصي ممّا لا بُدَّ منه أصْلًا، الثّالثة: بيان قيمة التَّوكُّل والاستسلام للخالق سُبحانه، الرّابعة: في الأمر بالتَّوكُّل إبرازٌ لقيمَة السَّعي والعمل للدَّعوة مع اتِّخاذ الأسباب لذلك.

سِرُّ الاكتفاء بـ ﴿مَتَابِ﴾ دون (متابكم):

رعاية الفاصِلة مع لُزوم (متابكم) لـ (متاب)

في الاكتفاء بقوله: ﴿مَتَابِ﴾ أسرارٌ لفظيَّة ودلاليَّة، أوَّلًا: عَدَمُ ذِكْرِ (متابكم) للمُحافظة على نهايات الآيات كما سَبَق في ﴿مَثَابِ﴾ وفيما يَأْتي في ﴿عِقَابِ﴾، ثانيًا: الكلام دالٌّ عليه التِزامًا، فإذا ذُكِر

(1) الرَّاغب، المُفردات: (توب).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/142.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.

﴿مَتَابِ﴾ فإنَّ لازِمه (متابكم)[1]، ثالثًا: المَتاب عودة مع تَوبة، وتوبة الكُفّار المُجادِلين عن كُفرهم غير ظاهرة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الإرسال والبعث:

الإرسال فيه بعث بِتؤَدَة، وفي الفعل معاني اليُسر والسُّهولة والرِّفق[2]، أمّا (بعثَ) ففيها معنى الإثارة[3] والقوَّة، إضافة إلى أنَّ (انبعث) مُطاوِع (أرسل)[4]، فكأنَّ البعْث إحياءٌ نتيجة الإرسال العظيم الفخْم.

الإرسـال بعثٌ بتُؤَدَة، والبعث فيه معنى الإثارة

الأُمَّة والقوم:

القوم: الجماعة، فقوم كلِّ أحَدٍ رهْطُه الَّذين جماعَتهُم واحدة ويَتكلَّمون بِلُغة واحدة، وقوم كُلِّ رسول أُمَّتُه المَبعوث إليهم، إذ كان الرُّسل يُبعَثون إلى أقوامهم، وقوم محمَّدٍ ﷺ هُمُ العَرَب، وأمّا أُمَّتُه فهُم الأقوام المَبعوث إليهم وهُم النّاس كافَّةً.

القـوم جماعة بينهم رابِطٌ من لُـغـةٍ أو جِنس والأُمَّة أعَمُّ

(خلَتْ) و(مضَتْ):

الفعل ﴿خَلَتْ﴾ فيه إشارة إلى بُعدٍ وانقراضٍ[5]، وهذا معنًى أصيل في ﴿خَلَتْ﴾، وهو غير موجود في (مضت)؛ لأنّ المُضي يدلُّ على النَّفاذ والمُرور، وفي ﴿خَلَتْ﴾ تحذير للكُفّار بأنَّ مَن لَم يُؤمن سيَموت مُتخلّيا عمّا كان فيه من الأُنْسِ بأهله وقُرنائه في دُنياه، وأصْله من قولهم: (خلا الرَّجُلُ)، إذا صار بالمكان الَّذي لا أنيس له فيه، وانفرَد من النَّاس. فاستعْملَ ذلك في الَّذي يموت، على ذلك الوجْه[6].

المُـضي يـدلُّ على النَّـفاذ والمُـرور، والـخـلـوُّ فيه إشارة إلى البُعد والانقراض

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/238.
(2) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/96.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/588.

التّلاوة والقراءة:

القراءة جُزء من التّلاوة، والتّلاوة قراءة وزيادة

أصل التِّلاوة إتّباعُ الشّيءِ الشّيءَ، يُقال: تَلاه إذا تَبِعه، وتكون التِّلاوة في الكلمات يتْبعُ بعضها بعضًا؛ أمّا القراءة فأصلُها الجمْع، تقول: (قرأتُ الكتاب قراءةً)؛ أيْ: (جمعْتهُ) وضَمَمتُ بعضَهُ إلى بعض، والتِّلاوة في كتاب اللّه اختُصَّتْ بالتَّدبُّر والتَّفَكُّر لِما فيها، أمّا القراءة فتأتي لمُطلَق التَّلفُّظ[1].

وعلى ذلك فالقراءة جُزء من التِّلاوة الّتي هي قراءة وزيادة؛ فهي - أيِ التِّلاوة - تعني التَّتبُّع والموالاة والمُتابَعة مع تناسُقها في اللَّفظ والمعنى، ومنه تلاوة القرآن؛ لأنَّه يتْبعُ بعضهُ بعضًا[2]، فالتِّلاوة: جعْلُ الثّاني يَلي الأوَّل بلا فَصْلٍ[3]، وهذا معنًى ليس موجودًا في القراءة؛ لأنَّ القراءة ضَمُّ الحُروف والكلمات بعضها إلى بعض في التَّرتيل[4].

(1) الدُّوريّ، دقائق الفروق اللُّغويَّة، ص: 196.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/338.
(4) الرّاغب، المفردات: (قرأ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»